أمين الريحاني

١٨٧٦ - ١٩٤٠

تعددت الصفات التي يعرّف بها الكتاب العرب والأجانب أمين الريحاني. فهو أديب. صاحب روايات وقصص. وهو شاعر. كتب قصائده على الطريقة الحديثة، طريقة شعراء القصيدة الحرة. وكان بذلك رائداً في هذا الشعر، متقدماً بعقود عدة على أمراء الشعر العربي الحديث. وهو رحالة وصاحب مدرسة خاصة في أدب الرحلات. وهي رحلات جال فيها العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه. وتميزت كتبه التي كرسها لرحلاته بكونها ضمت، إلى جانب انطباعاته عما شاهده وعمن التقاهم من أهل السياسة، مواقفه وآراءه السياسية والكثير من الأفكار والخواطر. وهو، فوق كل هذه وتلك من الصفات، ناقد أدبي وفني واجتماعي. وهو فيلسوف صاحب آراء في الحياة والكون والوجود. وكان أول من أطلق عليه صفة فيلسوف صديقه اللبناني سليم سركيس. إذ سماه فيلسوف الفريكة، نسبة إلى بلدته الفريكة التي يعتز أمين الريحاني بانتسابه إليها. وجاء ذلك خلال الإحتفال الذي أقيم في القاهرة تكريماً للريحاني في عام ١٩٢٢. وشارك فيه أمير الشعراء أحمد شوقي والدكتور أحمد زكي وجرجي زيدان مؤسس مجلة "الهلال" وشاعر القطرين خليل مطران. وأية كانت الإعتبارات التي جعلت الكتاب يطلقون عليه هذه الصفات المتعددة، فإنه في الحقيقة إنما ينتمي إلى جيل رواد النهضة العربية الثانية، الذين أكملوا في النصف الأول من القرن العشرين ما كان قد أسّس له رواد النهضة الأولى في القرن التاسع عشر من أفكار جديدة تتصل بالحرية والتقدم والتمدن. وهي أفكار بعضها مستوحى من شعارات الثورة الفرنسية وبعضها الآخر مستوحى من أفكار الإشتراكية. وكان الريحاني في أفكاره ومواقفه شريكاً لجبران خليل جبران ومي زيادة وميخائيل نعيمة وفيلكس فارس وإيليا أبو ماضي وعمر فاخوري وآخرين من كبار مفكري تلك الحقبة من اللبنانيين. وقد مثل الريحاني لبنان في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس في عام ١٩١٣ تحت شعار الحرية والإستقلال والوحدة القومية. ومعروف أن عدداً ممن شاركوا في ذلك المؤتمر قد دفعوا ثمن مواقفهم ومشاركتهم في ذلك المؤتمر حياتهم على أعواد المشانق التي نصبها لهم جمال باشا السفاح في كل من بيروت ودمشق في عامي ١٩١٥ و١٩١٦.

تميّز الريحاني بأنه كتب باللغتين العربية والإنكليزية. وهو ما كان قد فعله صديقه جبران خليل جبران. إلا أن الريحاني فاق جبران في عدد كتاباته بالعربية، وفاقه في تنوع مواضيع كتاباته. وكان يشده إلى وطنه اللبناني حنين دائم عندما كان في أميركا. فكان يغادر أميركا إلى لبنان ليقضي بعضاً من الوقت في وطنه ثم يعود من جديد إلى أميركا. وتكررت تلك العملية على امتداد حياته. وكان في هذا الأمر مختلفاً عن صديقه جبران. بل هو كان أكثر منه اهتماماً بالقضايا العربية من الخليج إلى المحيط. وعبّرت عن اهتماماته العربية رحلاته في بلدان المشرق وفي بلدان المغرب. وهي الرحلات التي نشر تفاصيلها في كتبه العديدة: "ملوك العرب" و"قلب العراق" و"المغرب الأقصى". لكن أجمل تلك الرحلات هي رحلته في بلده لبنان من أقصاه إلى أقصاه. وهي الرحلة التي زار فيها مدن لبنان وقراه ومناطقه كلها. ودرس في تلك الرحلة الخصائص والمكونات القديمة والحديثة للشخصية اللبنانية. وقد حملت رحلته تلك التي لم تكتمل فصولاً في كتابه المعروف "قلب لبنان".

ولد أمين الريحاني في عام ١٨٧٦ في بلدة الفريكة في أعالي جبل لبنان المطلة على البحر الأبيض المتوسط. كان والده تاجر حرير. وكان يهتم بالثقافة. قضى أمين طفولته في بلدته الفريكة. بدأ في السابعة من عمره يتعلم مبادئ اللغة العربية في مدرسة "بيت شباب" البلدة المجاورة لبلدة الفريكة، ثم في مدرسة "ظهور الشاوية" المجاورة أيضاً لبلدته. وتميز منذ صغره بحدة الذكاء وبقوة الشخصية. ولما أقفلت المدارس التي كان يتابع دراسته الأولى فيها تابع أمين الدراسة بنفسه في اللغتين العربية والفرنسية، مستفيداً من حكمة أبيه القائلة "الدارس غلب الفارس"، كما يقول جميل جبر في كتابه المكرس لأمين الريحاني في سيرته الشخصية والأدبية والفكرية. قرر أمين من تلقاء نفسه في عام ١٨٨٨، وهو في الثالثة عشرة من عمره، أن يسافر مع عمه عبده إلى نيويورك، بدلاً من البقاء في الفريكة للعمل مع والده في تجارة الحرير التي كانت قد بدأت تواجه صعوبات. أذهلته نيويورك بناطحات السحاب فيها، وزادته حنيناً إلى وطنه. لكنه استمر يعمل مع عمه في دكان متواضع في أحد شوارع نيويورك. ولم

يمض وقت قصير حتى التحق والده فارس به وبعمه في نيويورك ليعملوا فيها معاً من أجل تأمين معيشتهم في ظروف صعبة. وكانت تلك الظروف الصعبة ترهق أمين في المراحل الأولى من حياته. لكنها علمته الكثير، وعمقت في شخصيته الجوانب التي ظلت تتكون إلى أن أصبحت السمات العامة التي صار يعرف بها في المراحل اللاحقة من حياته بدءاً من عمر الشباب. وكانت تتكون شخصيته مرحلة إثر مرحلة. كان يقضي وقته مع والده وعمه في تنظيم حسابات المتجر وفي كتابة المراسلات الخاصة بالعمل التجاري. وكان يكرس اليل للقراءة في الكتب التي تتحدث عن أعلام الأدب الفرنسي والإنجليزي. وكان أكثر أولئك الأعلام اقتراباً من همومه ومن اهتماماته ومن طموحاته الأدبية والفكرية كل من الشاعر الإنجليزي بيرون والمفكرين الفرنسيين من عصر الأنوار فولتير وروسو، كما يقول جميل جبر في كتابه الآنف الذكر. في عام ١٨٩٥، وكان أمين قد بلغ التاسعة عشرة من عمره، قرر الخروج من دوامة العمل التجاري الذي لم يكن يألفه، واختار أن يلتحق بفرقة مسرحية جوالة ليمارس التمثيل. إلا أن الفرقة لم تعش طويلاً. فبعد عامين من العمل فيها أفلست. فاضطر أمين للعودة إلى العمل مع والده وعمه في المتجر إياه. لكنه تابع ليلاً دراسة القانون في كلية الحقوق في نيويورك. غير أن مادة القانون لم تجد هوى لديه. ولما بدأت متاعب العمل والدراسة تترك آثارها على وضعه الصحي أشار عليه الأطباء بالعودة إلى لبنان. فعاد في عام ١٨٩٨. وبدأ يتعلم اللغة العربية، مقابل تدريس اللغة الإنجليزية. غير أن الحياة لم ترقه في لبنان بعد كل تلك التحولات التي كانت قد بدأت تحصل في حياته. فعاد مجدداً إلى نيويورك في العام التالي، وبدأ نشاطه في مجال الكتابة. كان من أولى بداياته الجريئة في التعبير عن توجهاته العلمانية الطابع الخطاب الذي ألقاه في عام ١٩٠٠ في احتفال نظمته "جمعية الشبان المارونيين" بمناسبة عيد مار مارون. وكان عنوان الخطاب "التسامح في الدين". وقد بدأ الريحاني خطابه بالقول إنه يتحدث في أميركا حيث توجد حرية. وكان يقصد في كلامه أنه يستطيع قول ما يريد من دون أن يحسب حساباً لحاكم ظالم يعاقبه أو لمخبر يتجسس عليه. ومما قاله في ذلك

الخطاب: "أما نحن فلسنا في بيروت الآن ولسنا محاطين بالوالي والمكتوبجي والجواسيس، ولا توجد فوق رؤوسنا أيدي رجال حكومة ظالمة مستبدة من شأنها الضغط على العقول. نحن في بلاد نمت في ربوعها بزور الحرية منذ نشأتها. نحن في جمهورية عظيمة يحق لكل من وطئ أراضيها المباركة أن يتكلم بحرية تامة شرط أن لا يمس حرية غيره. وهذه الحكومة العادلة قد كفلت لشعبها الحرية بجميع أنواعها، حرية الدين وحرية الصحافة وحرية الخطابة وحرية التعليم وحرية العمل. فهذا أكبر باعث لتقدمها السريع ونشأتها الغريبة. فما لنا إذن ومراعاة الخواطر عند البحث عما يعود بأكبر الفوائد على السوريين في بلادهم وفي المهاجر... موضوعي هو التساهل الديني... موضوعي متشعب الطرق جليل الشأن جزيل الفائدة ذو أهمية بعيدة الأثر في المجتمع الإنساني. هو الموضوع الذي اختلف فيه الناس في العصور المتوسطة حين كان يدافع عنه العلماء والفلاسفة والأحرار ومحبو البشر ويعارضهم كل المعارضة الرؤساء والأمراء والملوك وكل من فضل قطعة معدن تدعى تاجاً على ذلك الشيء الإلهي الخفي الذي يسمى ضميراً. التساهل هو التسامح بوجود من يخالفك... التساهل الديني هو الإعتبار والإحترام الواجب علينا إظهارهما نحو المذاهب المتمسك بها الآخرون من أبناء جنسنا ولو كانت هذه المذاهب مناقضة لمذاهبنا... التساهل غير مطلوب في الأمور الدينية وحدها بل في كل الأمور التي تطرأ على عقول البشر ويعمل بها الكبار والصغار".

كانت بدايات الريحاني في نشاطه الأدبي كتابة الخواطر التي كان ينشرها في جريدة "الهدى" لصاحبها نعوم مكرزل، التي كانت تصدر في نيويورك. واستمر في العمل في تلك الجريدة إلى أن أصبح محرراً أساسياً فيها. في عام ١٩٠٢ كتب دراسة عن تاريخ الثورة الفرنسية، تناول فيها أسباب نشوء الثورة وما تميز بها مفكروها الأوائل وأبطالها الأساسيون فولتير وروسو اللذان ساهما في التأسيس لها، وروبسبيير الذي كان أحد زعمائها. وتطرق في الكتاب إلى الآثار الكبرى التي خلفتها الثورة وشعاراتها التحررية في العالم. وصدر الكتاب في منشورات جريدة "الهدى". في عام ١٩٠٣ التحق

بجمعية شعراء أميركا. وأصدر في العام ذاته كتابه الطريف "المخالفة الثلاثية" التي يتحدث فيها عن مملكة الحيوان. وأصدر في العام التالي أولى قصصه "المكاري الكاهن" التي تابع فيها معركته ضد رجال الأكليروس الذين، كما وصفهم، "كانوا يتاجرون بالدين، ويحولون المحبة إلى بغضاء والرحمة إلى جور وتعاليم المسيح إلى سلعة للإستثمار". وشعوراً منه بضرورة الإستمرار في معركته ضد رجال الإكليروس ترجم أمين إلى الإنكليزية "لزوميات" أبي العلاء المعري التي كان قد اطلع عليها قبل ذلك وتأثر بها. وفي عام ١٩٠٥ عاد الريحاني إلى لبنان بعد أن كان قد بدأ اسمه يتردد في لبنان وفي أميركا كأديب ذي نزعة علمانية تحررية. وتابع كتاباته في القصص والخواطر والنقد الأدبي والفني والإجتماعي. لكن رجال الإكليروس ناصبوه العداء. ونشرت صحف الآباء اليسوعيين "البشير" و "المشرق" اللتان كانتا تصدران في بيروت مقالات تتهمه بالكفر والإلحاد. فلم يستسلم لهم. بل هو تابع في لبنان المعركة التي كان قد بدأها في أميركا ضد رجال الإكليروس. إلا أنه اعتزل في فترة لاحقة في بلدته الفريكة وابتعد عن الحياة الإجتماعية فيما يشبه التنسك. وكتب لشقيقه الذي كان يقيم في مكسيكو رسالة يعبّر فيها عما كان يعاني منه. وجاء فيها: "أنا مستوحد في هذه الأيام. في نفسي أشياء لم تكتمل وأحلام لم أحلم بها بعد. إنني فريسة عذاب مؤلم يلاحقني خلال الفصول الأبدية... أحس كأنني خلقت لميراث هو وقف على العظماء المعذبين في التاريخ. وقد كتب عليهم أن ينعموا به". غير أنه عاد فخرج من عزلته وبدأ نشاطه الأدبي والفكري والسياسي من جديد. وكان من أبرز ما صدر له بعد عودته إلى نيويورك من جديد كتابه الشهير المعروف بـ "كتاب خالد". وهو مزيج من الرواية والإنطباعات والسيرة الذاتية. فبطل الرواية "خالد" يحكي في الرواية مسيرته الفكرية والنفسية والإجتماعية والأدبية خلال تنقلاته في الأمكنة والأزمنة وفي مناحي الحياة العامة على اختلافها. ويتحدث في الآن ذاته عن انطباعاته عن كل ما رأى وعايش، بما في ذلك في علاقته مع الطبيعة، وفي مرحلة العزلة التي وضع

نفسه فيها. وتشير هذه الأمور إلى أن سيرة خالد بطل الرواية هي سيرة الريحاني في المرحلة الأولى من حياته الأدبية والإجتماعية والنفسية.

لقد كان "كتاب خالد" البداية الحقيقية لانطلاق الريحاني في عالم الأدب والفكر. ومعه بدأ نجمه يصعد. وبدأ يوسع اهتماماته في مجالات الثقافة، بما في ذلك في الفن التشكيلي. وصار يكتب في الصحف دراسات حول الفن المعاصر. تضاف إلى ذلك النشاط رحلاته في مشرق العالم العربي وفي مغربه. لكنه ظل يتنقل بين أميركا ولبنان ذهاباً وأياباً، متمسكاً بثبات بانتمائه إلى وطنه لبنان وإلى أمته العربية، من دون أن يتخلى عن علاقته بوطنه الثاني أميركا، التي ترعرع فيها وتكونت فيها شخصيته وثقافته وتكونت فيها أفكاره التحررية.

تعرف الريحاني في عام ١٩١٥، في معرض للرسم في مدينة سان فرنسيسكو كان يتردد عليه، إلى فتاة أميركية تدعى برتا كانيس، التي أصبحت فيما بعد قرينته بعد أن كان قد انعقد بينهما حب عظيم. وفي عام ١٩١٦ أسس مع أصدقائه جبران خليل جبران وأيوب ثابت وميخائيل نعيمة فرعاً لرابطة تحرير سوريا وجبل لبنان التي كانت قد نشأت وتكونت في باريس، وأنشأت لها فرعين واحد في لندن والآخر في القاهرة. وكان شعار تلك الرابطة عبارة الرئيس الأميركي ولسن المعروفة "لا يجوز أن يرغم شعب على الرضوخ لسيادة غريبة".

تابع الريحاني في فترة الحرب العالمية الأولى إنتاجه الأدبي. فأصدر روايتي "جيهان" و"خارج الحريم". وظل مع زوجته الفنانة يتبادلان العمل في ميدان الفن التشكيلي رسماً ودراسة ونقداً. وتابع، في الوقت عينه، اهتماماته السياسية دفاعاً عن قضايا العرب وعن حقهم في الحرية وفي استقلال بلدانهم. والتقى في عام ١٩١٩ بالرئيس الأميركي تيودور روزفلت وبحث معه في قضية فلسطين وفي قضية العرب الأميركيين. وكان قد انضم في ذلك العام إلى نادي أدباء وكتاب نيويورك. وفي عام ١٩٢٠

أصدر كتابه "تحدر البولشفية". وهو كتاب أوحت إليه به ثورة أوكتوبر التي كانت قد انتصرت بقيادة زعيم البلاشفة لينين في عام ١٩١٧، وأسست نظاماً جديداً غير مسبوق في التاريخ باسم الإشتراكية. وأهدى الريحاني كتابه إلى صديقه مايكل موناهن "كاتب المقالة الذي يتمتع بسحر نادر، وفيلسوف اهتمامات فلسفية واسعة، رسول حرية وتعقل في الأدب كما في الحياة، إليه أقدم هذا الكتاب". وجاء في مقدمة الريحاني للكتاب: "مراراً في التاريخ ثار الناس على التفاوت الحياتيّ رافضين الخضوع لقيود القوانين والعقائد. وغالباً ما خاضوا مرحلة من الشيوعية والإرهاب الدمويّ على أمل إيجاد الدولة الفضلى في نهاية المطاف. واعتنق قادتهم – الذين كانوا بلا شك مخلصين في البداية – الحلم اليوتوبي. وأعلنوا أنفسهم ممثلين لمثلها العليا، والرسل الموعودين بنعمها. لكن ما أن أصبحت مادة الثورة في أيديهم حتى عجزوا عن مقاومة إغراء السلطة المحدثة. وسرعان ما حدث لهم ذلك التحول نحو ما يسميه التاريخ، وغالباً ما كان على حق في ذلك، بالديماغوجية حيثما يفشلون وبالأوتوقراطية حيثما ينجحون... وفي كلتا الحالتين استغل هؤلاء القادة عناصر الرفض في المجتمع ليصبحوا رسل عنف منادين بنظرية "التدمير البناء". لكن عوضاً عن خلق يوتوبيا على أنقاض الدمار الذي صنعته أيديهم، يظهر لنا التاريخ أنهم لم ينجحوا إلا في إقامة حكومة أخرى سرعان ما تصبح بالممارسة أشد استبدادية وأكثر فساداً مهما كانت أسسها صحيحة ومتينة... بيد أن رؤيا الدولة الفضلى التي نبّهت الشعب من سبات العبودية وحملته على التمرد وألهبته بالوعود البراقة بحيث قادته إلى التضحية بالنفس، إلى الشهادة، إلى التدمير، هذه الرؤيا ظلّت – رغم كل شيء – تختمر في تطلعات الأمم التالية. ويبدو أن نظرية ''التواتر الأبدي'' لا تنفصل عن نظرية ''التدمير البناء''؟... ومهما كان مدى طموح قادة الحركات التي تبنت هذه النظرية وإخلاصهم ومدى أنانيتهم وتجردهم من الضمير، ومهما كانت قسوة رسل المساواة والعنف وتصلبهم، فإن الأمة التي يقبلونها تستعيد توازنها إن عاجلاً أم آجلاً، وتعيد إرساء مبادئ العدالة والتقدم على مستوى أعلى بواسطة عاملي القانون والنظام... ذلك أن الأمة تخرج عادة من غمار جيشان ثوري

ما وهي أقوى خلقياً وروحياً. لكن هذا هو الإستثناء الوحيد. فقد كانت كل الحركات التي قامت في العالم ساعية إلى إنشاء يوتوبيا على الأرض بحد الخنجر أو السيف أو الحربة أو بالرشاش أو حتى بواسطة مجموعات مسالمة محكوم عليها بالإخفاق".

إلا أن اهتمام الريحاني بالثورة البولشفية، رغم نقده لها، إنما يشير في الأساس إلى النزعة التحررية التي رافقته في كل حياته مقرونة بتعلقه بالديمقراطية. وقد كان، إلى جانب إعجابه بالديمقراطية الأميركية خلال إقاماته الطويلة في أميركا، شديد النقد لهذه الديمقراطية. فهو قد رأى في التفاوت الإجتماعي الهائل بين كبار الرأسماليين وبين ذوي الدخل المحدود ما يشكل فجوة كبيرة وعميقة في الديمقراطية الأميركية. وقد كرس لنقد هذه الديمقراطية العديد من مقالاته. وصدر بعد وفاته كتاب ضم المقالات التي كرسها لنقد الديمقراطية الأميركية. وقد تطوع صديقه الأديب رئيف خوري بعد وفاته في عام ١٩٤٨ بجمع تلك المقالات وإصدارها في كتيب بعنوان "أمين الريحاني في حقيقة الديمقراطية الأميركية" وقدم له. يقول الريحاني في أحد مقالاته المنشورة في الكتيب تحت عنوان "نظام احتكار يحرم الفقير الكتاب والصحة" يصف فيه طبيعة النظام الأميركي:"التمدن الذي يقضي على الأولاد أن يباكروا بكور الزاجر ليذهبوا إلى المعمل لا إلى المدرسة هو تمدن ناقص الجهاز مختل النظام. والهيئة الإجتماعية التي يحرم فيها ابن الفقير التهذيب هي هيئة فاسدة تعز فيها مصلحة أهل السعة وتهمل حقوق بني الفاقة. والحكومة التي تتغاضى عن الآباء الفقراء الذين يشغلون أولادهم في المعامل طمعاً بأجورهم الزهيدةهي حكومة معوجة تحتاج إلى نواب عادلين حكماء منزهين يسنون لها شرائع قويمة وقوانين رادعة. تحتاج إلى خبير بأمراض الأمة ينبه مجلسيه 'مجلس الشيوخ والنواب' من حين إلى آخر ويحرضهما على سن مثل هذه الشرائع. تحتاج إلى صحافة حرة عادلة مجردة عن المطامع الذاتية لتطالب بها حينما تهمل. لتحتج وتعترض حينما تداس. لتذب عنها حينما يحاول إفسادها ذوو المآرب".

ومعروف أن الريحاني كان شديد الإعتزاز بعروبته. وكان دائم الدعوة إلى وحدة البلدان العربية. ولهذه الغاية ربما جاءت رحلاته المتكررة إلى البلدان العربية في المشرق والمغرب، والتي أكثر فيها من اللقاءات مع الزعماء العرب، وأكثر من الحديث فيها عن أحلامه ومطامحه الخاصة بوحدة البلدان العربية وبتحررها وتقدمها. وقد بدأ رحلاته تلك في عام ١٩٢٢. وكلفه إصراره على تلك المغامرة خسارة زوجته الأميركية التي عارضت مشروعه. إذ هو أصرّ على القيام برحلاته. فانفصلا. لكنهما ظلا صديقين حميمين يجمع بينهما حب قديم كبير.

ولأن الريحاني كان من دعاة الإصلاح في البلدان العربية فإنه ألّف في عام ١٩٢٨ كتاب "التطرف والإصلاح". فهو، إذ كان يرى في الإصلاح ضرورة، كان يرى في التطرف وسيلة إلى ذلك الإصلاح. يقول في فصل من الكتاب المذكور تحت عنوان "التطرف": "لو ساد العقل في الناس دائماً لما كان الرسل والأنبياء. ولو سادت الحكمة لما كان الفلاسفة والحكماء. ولو سادت الشجاعة والحكمة والعقل معاً لما كان الظلم والظالمون. ولو كان الناس، وقد ساروا متزاحمين في الجادات الضيقة المظلمة، يخرجون حائرين إلى الطرق الفسيحة، في ما اخضرّ ونوّر في الأرض، لما كان المصلحون. ولكن الناس، رعاك الله، كالأنعام يسيرون قطعاناً متحاكين، تابعين، مسوقين. فلا بد إذن من رعاة، ولا بد للراعي من عصا – ومن بندقية في بعض الأحايين. بل لا بد من عمال يحملون المعاول فيهدمون الجادات الضيقة التي لا تنفحها الشمس بشعاع من نورها، والتي يتزاحم فيها الناس فيتكالبون، ويتطاحنون، ويموتون. لا بد من هدم الجادات التي هي كالشعاب في الأودية، والتي لا ينبت على جوانبها غير الشوك والقندول".

ويتحدث في فصل آخر من الكتاب نفسه تحت عنوان "إصلاح الرعية" عن طريقين للإصلاح، طريق الثورة وطريق التطور الطبيعي، أي طريق الفكر وما يتصل به من أساليب التعليم والتربية. ويقول في الجواب عن أي الطريقين هو الموصل إلى الإصلاح، فيقول: "إن هناك طريقة أخرى غير الثورة

مثلاً، هي طريقة التطور الطبيعي، بل طريقة الفكر وكل ما يتناوله من أساليب التعليم والتربية. أي الطريقتين أفضل؟ قد تعلمون أني في ما أكتب وأقول حامل على القديم البالي، والقديم الفاسد، من العقائد والتقاليد. إني أطلب انقلاباً عاماً في الحياة الشرقية. ولست في ما أطلب سياسياً. إنما طريقتي أدبية، تهذيبية، روحية. أجل، إني أدعو الناس إلى ثورة فكرية تذهب بما في الأخلاق، والعادات، والتقاليد، والعقائد من فساد، وسخافة، وضلال. الثورة الأدبية قبل الثورة السياسية. والثورة الروحية قبل الثورة الإجتماعية. ''إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم''. فالمرء الذي يثور أولاً على نفسه فيصلحها، إنما هو المصلح الحقيقي. المرء الذي يثور على ما ورث من الأجداد، مما كان فاسداً أصلاً أو مما أفسده الزمان فيصلحه أو ينبذه، هو هو الذي يحق له أن يثور إذا ما اقتضى الأمر على الحكومة".

إلا أنه يعود فيذكر في مكان من هذا الفصل بأهمية التعليم فيعتبره أساس العمران وسياج الوطن. ويقول في الفصل ذاته متوجهاً إلى أبناء وطنه: "أخواني أبناء وطني، إن أول ما يلزمنا في هذه البلاد السورية، الفلسطينية، اللبنانية، الحورانية، العلوية، الجهنمية، في هذه البلاد التي تعددت فيها المعابد والمعاهد الدينية، والمدارس والمساوئ المذهبية، إنما هو هذا الشعور الوطني الخالص من شوائب المذهبيات والطائفيات كلها – الشعور الصافي السليم الخالص للوطن".

وما أكثر ما يؤكد الريحاني في كتاباته وفي كتبه وفي الخطب التي ألقاها في مناسبات عديدة، على الحرية والتمدن وعلى حقوق الناس جميعاً، لا سيما في الجمهوريات التي كانت قد تأسست حديثاً في أوروبا وأميركا. لكنه كان يكثر الحديث خصوصاً على القضايا العربية، وفي المقدمة منها قضية فلسطين. يقول في مقال له نشر بعد وفاته حول مصير فلسطين، ويعود إلى عام ١٩٣٧ ما نصّه:

"من الضروري الفهم الصحيح للمشكلة الفلسطينية المثلثة، قبل أن نقول أي شيء عن مصيرها. ولكن الفهم الصحيح يكاد يكون غير ممكن بدون نية طيبة ومدخل ودي. فلا يحتمل أن يكون لمصلحة العرب واليهود بدون إرادة حسنة وتحسس بالعدالة. ومؤهلاتي الخاصة في هذه الناحية ليست موضع تساؤل كما أعتقد. ولو أنني لبناني المولد فإنني عربي القضية. ولا أنتمي إلى أي حزب سياسي. ولست مرتبطاً بصورة رسمية بأية حكومة أو أية حركة سياسية. إنني مفكر حر، ومراقب متجرد، متجرد كما هو ممكن إنسانياً في هذه الأحوال. وأنا كذلك لست مصنفاً مع أي كان لديه أقل تحامل ضد اليهود كعنصر. وعقلي السامي يرفض مفهوم الآرية الأكثر بربرية، لعالم الأعراق البشرية السياسي. ودمي السامي يرفض عواقبها الرهيبة... فلقد قاوم العرب بالقوة تقسيم فلسطين، ولا يزالون يقاومون بالقوة تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين. وحتى إذا سحقت مقاومتهم غداً فسيكون السلام مؤقتاً فقط، وستبقى فلسطين جرحاً نازفاً في جسم الإتحاد العربي".

لكن واحداً من أجمل كتب الريحاني الأولى كتابه "الريحانيات" الذي أصدره في عام ١٩١٠ في أربعة أجزاء. ضم الكتاب مجموعة مقالات له في شؤون فلسفية وأدبية واجتماعية وسياسية. وأصدر الطبعة الأولى من هذا الكتاب بشعاره المعروف "قل كلمتك وامش".

سيكون من الصعب جداً في هذه السطور أن نحيط بكل جوانب شخصية الريحاني وسماته وصفاته وأفكاره التي امتلأت بها كتاباته وكتبه، ما نشره هو منها وما نشر بعد وفاته. وهو قد غادر الحياة في عام ١٩٤٠ في حادث سخيف. إذ وقع عن الدراجة التي كان يسوقها وأدى ذلك إلى وفاته. لكن سيرته المليئة بكل جديد ومتقدم في الفكر وفي الحياة وفي تطورهما هي التي نتحدث عنه. ولا يسعنا في ختام هذه الكلمات المقتضبة عن حياته إلا أن نقتطف بعضاً مما جاء في وصيته التي كتبها في عام ١٩٣١

ونشرت بعد وفاته. وعدد هذه الوصايا عشرين وصية. وقد جاء في تقديمه لهذه الوصايا: "ما فاتني في الحياة اللامعة عرفته من خلال الحياة الدامعة. فالألم والمرض والوحشة والحاجة هي أصدق الأدلاء إلى الحقائق الأساسية في نواحي الحياة جمعاء. وقد واليت الدليل في الشرق وفي الغرب، وتأبطت أحد كتبه – كتاب الآلام – ثلاثين سنة. وحملت في جيبي كتاب الوحشة على الدوام. وحاولت أن أحرق كتاب الإثم، وأمزق كتاب الحاجة، فأخفقت وما استسلمت".

وفيما يلي بعض عناوين من تلك الوصايا:

"إن حق الشعوب في تقرير مصيرها لحقّ مقدس... إن الأمة الصغيرة، وهي على حق، لأعظم من الأمة الكبيرة، وهي على باطل. أوصيكم بحفظ ذلك... الأمة القوية الحرة لا تستحق حريتها وقوتها ما زال في العالم أمم مستضعفة مقيدة... لا تبلغ الإنسانية أعلى درجات الرقي والعطف ما زال نصفها حراً ونصفها مستعبداً... إن المقاومة السلبية السلمية، خصوصاً عند الشعوب المستضعفة الفقيرة، هي خير من غيرها وأولى... إن خير حبّ للوطن هو الحب الذي يشمل الأوطان الأخرى... إن الوحدة العربية المؤسسة على القومية لا على الدين هي وحدة مقدسة... إن البطل الحقيقي، بطل اليوم والمستقبل، هو من يجرؤ أن يقول : لا أحارب ولا أحمل السلاح للحرب... أوصيكم بفك القيود وبإطلاق النفس والعقل من الأقفاص الخشبية والنحاسية والذهبية. أقفاص صنعها الكهان، وأقفاص صنعها الحكام، وأقفاص من صنع أرباب المال".

هذا هو أمين الريحاني. أليس مخجلاً ومفجعاً في آن أن يتطاول عليه، وهو واحد من رموز نهضتنا الكبار، بعض من لا يعرفون الحقائق، أو من يزوّرونها، فيتهمونه بالجاسوسية لأميركا؟ أليس مخجلاً ومفجعاً أن يكون هؤلاء هم الذين يصدرون مجلة "الهلال" في هذه الأيام، المجلة التي كان مؤسسها جرجي زيدان من أوائل الذين ساهموا في تكريم الريحاني؟